دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة الحادية عشرة: الفكر الإصلاحي عند رفاعة رافع الطهطاوي

تمهيد/

يمثل الطهطاوي بالنسبة لقطاع واسع من المؤرخين العرب، رائدا للنهضة العربية الحديثة،حيث يبدأ مع تجربته انفتاح الوطن العربي على الغرب، ذلك أن الفترة التي عاش فيها الرجل، تعد بحق مرحلة اكتشاف الذات والتعرف على الآخر، وقد أبانت أفكاره وإسهاماته، على أن قطار التغيير قد بدأت عجلاته في التحرك، وأن العقل العربي قد تلقى بالفعل جرعة لاستنهاضه، بعدما ظل لقرون عديدة مكبلا بستار الظلام والتقوقع وبالنظر إلى طبيعة الأفكار التي نادى بها، وعمل على تطبيقها في حياته، فقد تم تصنيفه ضمن سلسلة المفكرين التوفيقيين والإصلاحيين.

فمن هو الطهطاوي؟ وما هي روافد تكوينه؟ وما هي الإسهامات الفكرية التي طرحها لتحقيق النهضة؟

أولا: المولد والنشأة:(1801- 1873م)، رفاعة بن بدوي بن محمد بن علي بن رافع، أصيل مدينة طهطا بصعيد مصر، تلقى تعليما دينيا بدأه في الكتّاب، ثم التحق بالأزهر، وانتظم في دراسته وتخرج فيه.

تلقى رفاعة تعليمه وثقافته على أيدي كثير من الأساتذة، كان أبرزهم الشيخ حسن العطّار، الذي كان يختلف كثيرا عن شيوخ عصره، خصوصا في تعاطيهم مع الفرنسيين، فقد انتبه إلى ما عندهم من علم وحياة تخالف ما عرفته مصر، ورأى ضرورة معرفة ما عندهم أملا في مستقبل أفضل، وتولى العطار رفاعة بالرعاية والتهذيب، كما حبب إليه القراءة في مختلف الفنون والآداب، وهو من قام بإقناع محمد علي باشا لانتدابه لإمامة الجيش عام 1824م، وهو من أرسله ليكون واعظا وإماما للبعثة العلمية إلى فرنسا، فكانت السنوات الخمس 1826-1831م التي قضاها بباريس أهم أعوام تكوينه الفكري، وكما يقول رفاعة فان الشيخ العطار هو من أشار إليه قبل رحلته إلى فرنسا أن يدون رحلته في تلك الأقطار فكان كتاب " تخليص الإبريز في تلخيص باريز.

لم يكن متوقعا للشيخ رفاعة رافع الطهطاوي ولا منه عندما اختير إماما للمبعوثين أن يتخطى مهمته في الوعظ والإرشاد لأفراد البعثة، لكنه عاش في باريس بوجدان يقظ، وبصيرة ناقدة، وظلت عينه مسلطة على ثقافتها وعلمها، وقد احتفظ بشخصيته العربية الإسلامية، وعاد إلى وطنه واسع الثقافة، سليم العقيدة، سليم الوجدان، مزودًا بالخبرة والخيال، معتزمًا خدمته على نحو ما يفعل كل وطني مسكون بحب بلده.

وبعد عودته من باريس، تولى على مدار عشرين عاما بين 1831-1850م، العديد من المناصب وترجم كثيرا من الكتب، وقد أرسل إلى السودان لافتتاح إحدى المدارس، زمن الخديوي عباس الأول، غير أنه ترك هناك لمدة أربع سنوات بين 1850-1854م، وقد اعتبرت هذه المرحلة فترة نفي، عاد بعدها إلى القاهرة، واستأنف من جديد نشاطاته العلمية ومسؤولياته في العديد من الميادين لاسيما التربوية والتعليمية منها.

ثانيا:الإسهام الفكري للطهطاوي:

إن ما قام به رفاعة من جهود تعبر عن ثقافته الواسعة التي استقاها من عدة مصادر، وتبرز مكتبته الثرية تنوع اهتماماته، ويعكس حجمها سعة اطلاعه وحبه للعلم، كما تكشف التنوع المدهش للتراث العربي الإسلامي، وهو التنوع الذي أحاط به رفاعة، وهو ما يساعد على فهم عدم انبهار الطهطاوي بالحضارة الغربية على خلاف الكثيرين ممن جاءوا بعده، فكان إنتاجه الفكري المتميز،الذي تفرق بين التأليف والترجمة وإسهاماته في العديد من المواقع التي شغلها صورة ناطقة تعكس هذه الميزة.

أولى الطهطاوي أهمية خاصة لحركة الترجمة، فقد تولى تدريس اللغة الفرنسية، واقترح على محمد علي باشا إنشاء مدرسة الألسن، حيث تم تأسيسها بالقاهرة عام 1835م وقد عرفت في البداية بمدرسة الترجمة ثم بالألسن، وقد تخرج فيها جيل من المترجمين، كما تولى الإشراف على إدارة العديد من المعاهد، كما أسندت إليه رئاسة تحرير جريدة الوقائع المصرية عام 1842م، حيث أعطاها محتوى جديدا، وحوّلها بالفعل إلى جريدة عربية في المقام الأول،بعدما كانت لغتها الرئيسة اللغة التركية.

وقد ترك لنا العديد من الأعمال المترجمة العلمية والأدبية والفكرية نذكر منها: - تاريخ قدماء المصريين – تعريب قانون التجارة – تعريب القانون المدني الفرنساوي – كتاب قدماء الفلاسفة – مبادئ الهندسة – المنطق وغيرها.

تنوعت اهتماماته الثقافية، فقد عدّ أول عربي أنشأ متحفا لآثار مصر، وخطط لجمعها وصيانتها، ففي نفس العام الذي بعث فيه مدرسة الألسن 1835م، قدّم مشروعا إلى محمد علي لحماية الآثار، ونشرت الوقائع المصرية الدعوة إلى ذلك، فكان أن تحول فناء مدرسة الألسن إلى نواة لأول متحف للآثار في مصر، ولم يكن اهتمام الطهطاوي بآثار البلاد ضربا

من ضروب التعلق بالفن، بل كان موقفا وطنيا، ارتبط بحبه لوطنه وعدائه الأصيل لحركة النهب الاستعماري، التي استغلت غفلتنا عن آثارنا وقصورنا عن إدراك أهميتها ودورها في تكوين وجداننا القومي.

وفي باب التأليف فقد ترك لنا إنتاجا غزيرا، نكتفي بالإشارة إلى أهمه:

-تخليص الإبريز في تلخيص باريز: وطبع تحت عنوان آخر أيضا " الديوان النفيس في إيوان باريس " كتبه في باريس مصورا فيه رحلته إليها، وقد أضاف له فصولا بعد عودته من فرنسا، وقد طبع مرتين في حياته ، الأولى عام 1834م، والثانية عام 1849م ، وصارت له طبعة ثالثة عام 1905م.

- مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية: وهو الذي خصصه الطهطاوي لمعالجة التمدن وأودع فيه فكره الاجتماعي ، وقد طبع مرتين في 1869م ثم عام 1911م.

- المرشد الأمين في تربية البنات والبنين: وهو الذي خصصه الطهطاوي لفكره في التربية وآرائه في الوطنية والتمدن، وقد طبع عام 1873م.

كما عزم الرجل على تأليف موسوعة تاريخية وقد شرع في إعدادها،فقد حمل الجزء الأول المعنون: أنوار توفيق الجليل في أخبار مصر وتوثيق بني إسماعيل، وقد تناول تاريخ مصر القديمة حتى الفتح العربي وتاريخ العرب حتى إرهاصات ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، وقد طبع عام 1868م، كما عزم على انجاز الجزء الثاني المعنون: نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، استعرض فيه سيرة المصطفى عليه السلام ومقومات الدولة الإسلامية الأولى، وقد شرع في حياته ينشر مقاطع منه في مجلة " روضة المدارس"، التي كان يشرف عليها وحالت وفاته دون إتمام العمل في صورته النهائية، فتولى نجله علي فهمي رفاعة القيام بذلك، وطبع في عام 1873م، هذا علاوة على انتاجات شعرية، ومحاولات في قواعد اللغة العربية ،وبحث في موضوع الاجتهاد.

ثالثا:أطروحاته الإصلاحية وآراؤه السياسية:

تمثل أفكاره المبثوثة في كتاباته المتعددة أطروحات إصلاحية، ومواقف سياسية، عالج فيها القضايا التي كانت تشغل الطبقات المتعلمة، وأيضا عموم الناس في عصره، ففي كتابه " تخليص الإبريز في تلخيص باريز " ظهر ذكيا وحذرا في طرح الأفكار، وذلك ليكسب القارئ إلى صفه، لاسيما وهو يخاطب أبناء مجتمعه المحافظ والمتحفظ، الذي يكنّ عدوانية للأجانب، وحتى يجعله بعد ذلك يتجرع جرعات قوية من أفكار الجسارة والتجديد.

إن هذا الكتاب، الذي ترجم لاحقا إلى التركية، هو أول الأصوات في تاريخ التأليف العربي الحديث التي تتحدث إلى المصريين، والى كافة المسلمين من الداخل أي على لسان واحد منهم، وليس على لسان غريب يأتيهم من الخارج، وقد أعلن هذا الصوت، نهاية حصار الظلام على مصر، نهاية عصور العزلة، ليس فقط من الوجهة العقلية والصناعية، ووجهة الطرائق الفنية، بل وكذلك من الوجهة الإنسانية، وسيكون رفاعة بكتابه هذا، داعية متحمسا للاتصال مع الأوربيين، الذين قويت شوكتهم ببراعتهم، وحسن تدبيرهم.

- فكرة الوطنية والعروبة والحرية:

تناول الطهطاوي في كتابه المرشد الأمين للبنات والبنين، فكرة المواطنة وحقوق المواطن وواجباته فقال:" فابن الوطن المتأصل به، أو المنتجع إليه، الذي توطن به، واتخذه وطنا ينسب إليه تارة والى اسمه، فيقال مصري، والى الأهل فيقال أهلي، والى الوطن فيقال وطني، ومعنى ذلك، أنه يتمتع بحقوق بلده، وأعظم هذه الحقوق الحرية التامة في الجمعية التأنسية أي المجتمع الإنساني، ولا يتصف الوطني بوصف الحرية، إلا إذا كان منقادا لقانون الوطن، ومعينا على إجرائه ".

يرجع الفضل إلى الطهطاوي في بعث فكرة الوطنية المصرية، فهو الذي تحث عن مصر وعلاقتها بصناعة الحضارة والتمدن منذ أقدم عصور التاريخ، ولا يمكن تجاهل أنه هو من نقل فكرة الوطنية إلى مصر عن الغرب الأوربي، وقد تناثرت هذه الفكرة في ثنايا مؤلفاته المتعددة حتى أن محقق أعماله المفكر محمد عمارة وصف الجزء الثاني من تلك الأعمال والذي جمع فيه " تخليص الإبريز و المرشد الأمين " باسم السياسة والوطنية والتربية، لذا يسهل القول بأنه أول مفكر مصري لديه فكرة الوطنية مصاغة بهذا الشكل، تلك الفكرة التي تبلورت وأصبحت أكثر نضوجا على أيدي سلسلة متعاقبة من المفكرين.

لقد وجدنا في فكر الطهطاوي، صياغات نظرية تتحدث في القومية والوطنية، حديثا غير مسبوق في المناخ الفكري السائد قبل هذه الفترة، ويذهب محمد عمارة، إلى أن عبارة " حب الوطن من الإيمان "، قد أوردها الطهطاوي مرارا في كتابه تخليص الإبريز، بينما اعتبر أحد الباحثين، أنها فكرة جديدة في اللغة العربية ونسبها إلى بطرس البستاني (1819-1883م)، الذي جعلها شعارا لمجلته المسماة " الجنان ".

تحدث رفاعة على أن العروبة هي مفهوم حضاري، وليس مفهوما عرقيا أو نسبيا، فناقش الذين يزعمون أن بناة الفكر العربي، المنحدرين من أصلاب غير عربية ليسوا بعرب، ولا يدخل فكرهم في التراث العربي، فردّ على هذه الدعوى، بأن مفهوم العروبة، هو مفهوم حضاري، وهؤلاء المفكرون، هم أبناء الحضارة العربية، فهم عرب بالحضارة، وإن لم تكن أصولهم من عدنان أو قحطان.

لقد حجز مفهوم الحرية مكانة أساسية في كتابه تخليص الإبريز، وبدلا أن يترجم اللفظ باللفظ أي المقابلة بيم كلمة Liberté باللغة الفرنسية، وما ينظرها بالعربية وهو الحرية، ولكنه عبر عنها بقوله كما نسميه عندنا العدل والإنصاف، وهذا الإطار المتدرج، يمثل عند الطهطاوي اتجاها عاما، لا يريد أن يصدم قارئه على الفور بما لا يعرف، وبما هو غير متعود على تداوله، وهو كذلك دليل قوي على أن جهد رفاعة يتعدى محض الأخبار بكثير، أو محض الترجمة لنصوص مهما تكن أهميتها، فما عرضه يمثل جهدا أصيلا، ومحاولة مهمة للتجديد في الفكر.

- مسألة التقليد والانفتاح على الآخر:

لقد أدرك الطهطاوي أن وراء احتكاك أوربا بالشرق أهدافا استعمارية يبتغيها الأوربيون، فحذر من رد الفعل الانعزالي لدى الشرقيين إزاء هذه المطامع، ونبّه إلى ضرورة الاستفادة حتى من المخالطة التي تحدث نتيجة للصراعات، التي تقوم بيننا وبين أعداء بلغوا درجة أرقى منا في سلم التطور العمراني، واستنكر موقف الرافضين، فهو بعد أن تحدث عن المنافع المترتبة عن المخالطة العادية حين قال:" فمخالطة الأغراب لاسيما إذا كانوا من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب " ، ذكر بشأن الاحتكاك العنيف والساخن، مؤكدا حصول المنافع أيضا: " إن هذه المنافع مؤكدة، حتى ولو كانت مترتبة على التغلب والاغتصاب، فربما صحت الأجسام بالعلل ".

ومن الأشياء الهامة التي لفتت نظر الطهطاوي بباريس " الديمقراطية الليبيرالية "، ومؤسساتها السياسية ودستورها وقوانينها، ولقد أعطى الرجل هذه الناحية اهتماما كبيرا، فقد تصدى لها بالشرح والتحليل، بعد أن قام بالترجمة، ثم راح يعقد مقارنة بينها وبين الشريعة الإسلامية، والتي تعد أول دراسة مقارنة في تراثنا الدستوري والتشريعي، وهو في هذا العمل، أراد أن يدخل الفكر السياسي الأوربي إلى الشرق، الذي سادت فيه أنظمة الحكم الفردي، وشريعة الاستبداد.

تظهر مطالعة كتابات الطهطاوي المتعلقة بالفكر الاجتماعي والاقتصادي، أنه كان ضد الإقطاع ومن أنصار الفكر الليبيرالي، ولكن بطريقة معتدلة، فقد أنكر المأثورات التي حاولت إشاعة الزهد والعزوف عن الحياة الدنيا، ومجّد تحصيل الثروة، وهكذا نجده يدافع بحرارة عن إطلاق الحرية للإنتاج الخاص في الزراعة والتجارة والصناعة، موضحا بأنها أعظم المنافع العمومية.

ومن القضايا التي تصدى لها الطهطاوي مسألة التقليد ورفض التجديد، ذلك أن النغمة السائدة قبل عصره تقول بأن الخير كل الخير في التقليد والإتباع، والشر كل الشر في محاولات التجديد والابتداع، وعاب على من يردد قول:

وكل خير في إتباع من سلف ... وكل شر في ابتداع من خلف

ومن موقعه كرائد للفكر المستنير، لم يعترض على مسألة التقليد والإتباع في الأمور الدينية، وإتباع الأحكام الشرعية في مسائل الحلال والحرام، لكنه بالمقابل، أنكر الوقوف عند انجازات السلف، وقد قال: " إن مخترعات هذه الأعصر، التي يتلقاها الرعايا والملوك بالقبول، كلها من أشرف ثمرات العقول ".

- الطهطاوي وقضية المرأة:

جاء اهتمام رفاعة بالمرأة مبكرا، منذ ترجمته لأول كتاب وهو " قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر "، الذي أكد فيه على أن احترام النساء دليل على تحضر القوم، واحترامهم وأدبهم، وفي الوقت نفسه فإن عدم إيفاء النسوة حقوقهن يدل على بربرية هؤلاء القوم، ويبدو أن الطهطاوي كان سباقا في مجتمعه إلى المطالبة بنهضة المرأة وتعليم البنات وتثقيفهن على غرار الفتيان، ويضم كتابه " المرشد الأمين في تربية البنات والبنين " توجيهات كثيرة إلى كيفيات إعداد المرأة، وانخراطها في الحياة المجتمعية.

لقد كافح تلك النظرة التي تعتبر المرأة مجرد ملاذ للرجل،ليس من منطلق رفضه لفكرة الملاذ فهذه مسألة اعتبرها من متعلقات الأنوثة بالنسبة للمرأة، ومن متعلقات الذكورة بالنسبة للرجل، وذهب إلى القول بوجود تناغم بين صفات كلا المخلوقين، بما يحقق المساواة بينهما، باستثناء بعض الفروق البسيطة، حيث ذكر: " فإذا أمعن العاقل النظر الدقيق في هيئة الرجل والمرأة، في أي وجه كان من الوجوه، وفي أي نسبة من النسب، لم يجد إلا فرقا يسيرا يظهر في الذكورة والأنوثة، وما يتعلق بهما، فهما موضع التباين والتضاد "، فليس هناك نقص طبيعي في التكوين وأصل الخلقة، مما يجعلها دون الرجل في تحمل أعباء الحياة في عديد الميادين.

في الواقع، فإن رفاعة، لم يكن يريد المرأة رجلا، بل رأى ضرورة المحافظة على ميزتها، التي تجعل منها مكمّلة للرجل، وهو في هذا الطرح، لا يتنازل عن فكرته الداعمة للمساواة، ومن ذلك، حديثه عن المساواة بين الزوجين، فقد سخر من الذين يعطون الحق للرجل، ويحيلون الواجب على المرأة، ويقول في هذا الباب:" وكثير من الرجال، يرى أن له حقا على زوجته، وليس لها حق عليه، وأن جميع ما يفعله معها جميل ".

ويلخص محمد عمارة المكانة التي خص بها الطهطاوي المرأة تربية وتعليما وحقوقا حيث قال: فنحن أمام شيخ يفهم تراث الإسلام فهما مستنيرا، أمام مصلح يناضل كي يحرر المرأة الشرقية من أغلال الجهل وأكثر من ذلك، أمام إنسان متحضر في نظرته للمرأة.

خاتمة:

وعلى الرغم من ظروف العصر التي نشط فيها الطهطاوي، فإنه قد استطاع أن يقدم لنا مشروعا للنهضة الوطنية، يصلح للتطبيق في مصر وغيرها من الأقطار العربية، التي كانت تسعى للنهوض مجددا بعد عصور طويلة من الانحطاط، وقد شمل مشروعه هذا، جميع المناحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية، وهو وإن كان تقليدي المنشأ والتكوين، فقد فتح نافذة على التجربة السياسية الفرنسية، وكذلك التجربة الحضارية والثقافية والاجتماعية الغربية عموما، ومن هنا يعتبر الطهطاوي، أول جسر عربي عبرت عليه الثقافة الأوربية عموما والفرنسية خصوصا، معلنة بداية النهضة.

//

المصادر والمراجع:

- رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، دار الكتاب المصري، القاهرة 2012م.
- عزت قرني، العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جوان 1980م.
- موسى بوبكر، إشكالية فكر النهضة العربية دراسة نقدية لمشروع النهضة،أطروحة دكتوراه العلوم في الفلسفة، قسم العلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2010-2011م.
- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ط5، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987م.
- الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، ج1 التمدن والحضارة والعمران، دراسة وتحقيق محمد عمارة، مكتبة الأسرة، القاهرة، 2010م.